

الشاهنامه إحدى روائع الأدب العالمي

عبد الرحمن العلوي
كاتب وأديب

الفردوسي اسم لامع ليس في الأدب الإيراني فحسب، وإنما في الأدب العالمي أيضاً، وتعود جل شهرته لملمته «الشاهنامه» التي تُعدُّ رائعة عالمية تقف إلى جانب روائع عالمية أخرى كاللياذة والأوديسة لهوميروس، بل عدها البعض أكثر روعةً وأوسع اطاراً وأجزل شعراً من هاتين الرائعتين اليونانيتين ومن رامايانا ومهابهارتا الهنديتين، لأنها في الحقيقة ديوان من الملاحم والقصص والفنون الأدبية والفلسفية والحكمية، نظمت بحيث أصبحت تاريخاً لشعب متحضر عريق، وصورت مختلف جوانب حياته في مختلف العصور، ورسمت بأروع ريشة فنية أهدافه، وآماله، وانتصاراته، ومحنه، ومآسيه، وأخلاقه، وعاداته، وتقاليده، وعقائده، وكافة الملامح الإيرانية^(١).

من اعظم الملوك السامانيين وهو الأمير نصر بن أحمد، أي انه قد امضى السنوات الاولى من طفولته في عهد كانت تخامر امراه نزعة قومية، وهو أمر قد ترك تأثيره عليه أيضاً سيما وأنه وُلد كما قلنا في اسرة اقطاعية لازالت تعيش رغم انتمائها للإسلام تحت تأثير العادات والتقاليد القديمة مثل باقي الأسر الاقطاعية والريفية. ولا شك في ان جزءاً من هذا الميل كان ناشئاً من الشعور بالاحترام الطبيعي لسنن الأجداد، وتمجيد العصر التليد، والاعتزاز بالثقافة القديمة^(٢).

الفردوسي وقبل أن ينبري لنظم الشاهنامه - وأيضاً

ولد الحكيم ابو القاسم الفردوسي في العقد الثالث من القرن الرابع الهجري (بين ٣٢٥ و ٣٢٩ هـ) في قرية باج - من قرى طوس - في اسرة اقطاعية متمولة، وتوفي في عام ٤١١ أو ٤١٦ هـ اسمه المنصور بن الحسن كما ورد في الترجمة العربية للشاهنامه التي قام بها الفتح البنداري. وذكُرت له أسماء أخرى مختلفة باختلاف التراجم كالحسن بن علي، والحسن بن اسحاق بن شرف شاه. ويبدو أنّ هناك اتفاقاً على كنيته (أبي القاسم) وعلى تخلصه (الفردوسي)^(٢).

وُلد الفردوسي في السنوات الاخيرة من عمر واحد

وفي نفس الشاهنامه، لم يعبر عن إيمانه بالله تعالى فقط، وإنما هناك العديد من الأبيات التي يعبر فيها عن اعتقاده بالرسول محمد (ص)، والقرآن، والدين الإسلامي، ويشيد ببيت الله الحرام والكعبة المشرفة^(٧). وهكذا نجد تهامة الاتهامات التي وجهتها بعض المصادر للسفردوسي مثل القرمطة، والباطنية، والمجوسية وغيرها. وقد ورد على هذا الصعيد في المقدمة النظرية للشاهنامه أن الفردوسي قد اتهم لدى السلطان محمود الغزنوي بالقرمطة، فلما بلغ الفردوسي ذلك، انطلق نحو السلطان ووقع على رجليه قائلاً: إنها تهمة كاذبة ولست قرمطياً. فرّق له السلطان، إلا أنه قال له:

إذا كان ولا بد فاعزب عني لكي لا أراك^(٨). ولو صحت هذه الواقعة فإنها تشير إلى ما كان يحوكه خصومه من مؤامرات وفسائس للايقاع به.

الخلفية التاريخية للشاهنامه

يبدو أن كتابة ما يُعرف بـ«الشاهنامه»^(٩) كان أمراً شائعاً لدى الكتاب الإيرانيين خلال أواخر العصر الساساني وبداية العصر الإسلامي. وقيل بهذا الشأن أن الملك الساساني خسرو برويز قد أمر بجمع الأساطير الإيرانية التي كانت تتناقلها الأفواه أو مبعثرة هنا وهناك، في كتاب واحد. وقيل أيضاً أن ذلك قد جرى في عهد حفيده يزيد شهباز الذي حكم إيران خلال الفترة ٦٣٢ - ٦٥١ م. ولكن لا يوجد هناك مصدر يتحدث عن هذا الكتاب أو المصير الذي آل إليه.

وقد اطلع العالم الإسلامي على الأساطير والقصص الإيرانية من خلال بعض المعربين الإيرانيين، ويقف ابن المقفع^(١٠) على رأسهم. ومن أشهر الكتب التي ترجمها ابن المقفع كتاب «كليب ودمنة». كما قيل أنه قد ترجم كتاب «سيرة الملوك» إلا أن هذه الترجمة قد فقدت كما هي الحال بالنسبة للأصل الفارسي^(١١).

خلال فترة نظمها الطويلة - كان يشاهد عن كثب التطورات السياسية التي طرأت على إيران عموماً وعلى إقليم خراسان خصوصاً، لا سيما انقراض السلالة السامانية ذات الاعتدال القومي والتي يقول المؤرخون إنها تنتسب إلى «بهرام جوبين» الزعيم الساساني. ويُقال إن جدها «سامان» قد عاصر عهد هارون الرشيد وكان مجوسياً في بداية الأمر^(٤).

وكانت هذه الأسرة تبدي رغبة عظيمة في إحياء ما لا يتعارض مع الإسلام من السنن والآداب والتقاليد الإيرانية القديمة^(٥).

وفي ظل هذه الأوضاع ترعرع الفردوسي، فتفتحت عيناه على الإسلام من جهة، وعلى النزعة نحو التراث من جهة أخرى، ولا شك أن هذا قد ترك أثراً بارزاً عليه، وأخذ ينمو في نفسه انشداد كبير نحو الحضارة الفارسية القديمة، وتتفجر في روحه رغبة كبيرة نحو تخليد التراث الفارسي بالطريقة التي لم يكن يجيدها غيره آنذاك، ألا وهي لغة الشعر.

ورغم كل ما كان لدى الفردوسي من نزعة قومية واعتزاز بالماضي الإيراني، وتأكيد على إحياء اللغة الفارسية والتراث الفارسي بواسطة اللغة الشعرية، إلا أنه لم يتنصل عن دينه الإسلامي، رغم كل ما قيل على هذا الصعيد من قبل الكثيرين، فهي أقاويل تكذبها الشاهنامه نفسها، لا سيما وأن أول دروسها وآخرها دروس في الثناء على الله تعالى، والتحدث عن التوحيد. فالفردوسي يؤكد وبلغة شبيهة ببلغة الفلاسفة أن الله تعالى خالق الروح، والعقل، والزمان، والمكان، ومالك الشمس، والقمر، وزحل، والزهرة، ورب السماوات والعالمين، وأنه الرب الذي يشهد على وجوده التراب، والهواء، والماء، والنار، وكافة العناصر. كما يتحدث بلغة العرفان عن أن الله قد أوجد العالمين، واللوح، والقلم بكلمة «كن»، وأنه غير محتاج، وقدير، ولا شريك له ولا شبيه^(٦).

الساماني نوح بن منصور (٣٦٥ - ٣٨٧ هـ)، إلا أنه لم يكتمل ينهي ٩٩٠ بيتاً منها حتى اغتاله غلامه عام ٣٦٨ هـ وهو في ريعان الشباب. فانبرى الفردوسي لاكمال ما لم ينجح الدقيقي في اكماله.

ويتساءل البعض: هل ان الفردوسي قد صاغ ملحمة الشعرية اعتماداً على شاهنامه ابي منصور؟

ويجيب الاستاذ مينيوي: انا لا ادري، وليس لدي وسيلة للقطع بذلك، ولكن عندي كتاب اسمه «غزر أخبار ملوك الفرس وسيرهم» منسوب الى ابي منصور الثعالبي^(١٦٦)، وقد أشار الى شاهنامه ابي منصور، ويبدو انه كانت لديه نسخة منها، وأنا احتفل ان جل ما جاء في كتابه، استخرجه من هذه الشاهنامه...^(١٧١) ويريد مينيوي ان يقول بأن شاهنامه ابي منصور هي المصدر الوحيد الذي كان قد انفرد بايران ما قبل الاسلام آنذاك، ولا بد للفردوسي ان يكون قد اعتمد عليها في شاهنامه أيضاً، وان لا يبدو بعيداً اعتماده على مصادر تاريخية اخرى كمصنفات الطبري وابن خرداذبه.

ملاحم الشاهنامه

الشاهنامه ليست افضل نموذج وأسمى عينة للفصاحة الأدبية الشعرية فحسب، وانما هي اسام في النظم والنثر الفارسيين. وهي بايجاز كتاب أدبي حافل بالملاحم الوطنية، وفنون الفصاحة والبلاغة، وكنز من المفردات الفارسية^(١٨).

وتبدأ الشاهنامه وطبقاً لما هو متعارف آنذاك باستمداد العون من الله تعالى لانجازها وهو ما يُعرف بالديباجة. والديباجة نوع من البيان الشعري في قالب الدعاء والتضرع. وتتحدث الشاهنامه خلال تلك الديباجة عن خلق العالم، وخلق الناس، ووصف السماء والشمس والقمر، ومن ثم امتداح الرسول (ص) وأهل بيته (ع)، وتنتهي بمدح السلطان محمود الغزنوي.

وتُعدّ شاهنامه أبي المؤيد البلخي - الكاتب والشاعر المعروف في مطلع القرن الهجري الرابع، اول كتاب في «سير الملوك» لدينا حوله معلومات واضحة. وأبو المؤيد البلخي هذا هو نفسه الذي نظم لأول مرة قصة «يوسف وزليخا» بالفارسية، كما له كتاب تحدث فيه عن عجائب مخلوقات البر والبحر. وعُرفت الشاهنامه التي ألفها بـ «شاهنامه المؤيدي». لكنها هي الاخرى لم تكن احسن حظاً مما سبقها، فقد ضاعت بعد القرن السادس الهجري ولم يُعثَر لها على خبر^(١٢٢).

وكُتبت بعض الكتب نظماً ونثراً بالفارسية في القرنين الهجريين الثالث والرابع، كانت ذات صلة ايضاً بقصص الابطال الايرانيين القدماء، مثل «غرشاسب نامه» والتي يُعتقد انها نفس شاهنامه المؤيدي. وفي مطلع القرن الرابع الهجري ظهرت الى الوجود شاهنامه شعرية لشاعر يدعى مسعود المروزي لم يصل الى ايدينا منها سوى اربعة ابيات فقط^(١٣). وتُعدّ الشاهنامه المعروفة بـ «شاهنامه ابي منصور»، اهم الشاهنامات في تلك الفترة. وهي شاهنامه نثرية قيل انها أُلقت في عام ٣٤٦ هـ بناءً على أمر من قائد جند خراسان^(١٤).

وبُعيد شاهنامه ابي منصور تُرجم كتابان من العربية الى الفارسية وهما: تفسير الطبري، وتاريخ الطبري^(١٥)، تطرقا الى شيء من التاريخ الايراني القديم، ولا شك في ان الفردوسي قد اطلع على هذه الكتب الثلاثة التي ذاعت في ايامه. وهناك تفاوت رئيسي بين شاهنامه ابي منصور وتاريخ الطبري (البلعمي) يتمثل في ان الاولى اختصت بتاريخ ملوك ايران وانفردت بالحديث عن التراث الايراني، في حين كان تاريخ الطبري عبارة عن سرد لتاريخ كافة الملوك والامم قبل الاسلام.

وانبرى خلال تلك الفترة شاعر من شعراء البلاط الساماني يدعى «الدقيقي» لنظم شاهنامه مستوحاة من شاهنامه ابي منصور النثرية، بتشجيع من الامير

تتناقلها ألسن الإيرانيين^(٢٣).

وانعكست الروح الاخلاقية التي كانت لدى الفردوسي، على شخصيات ملحمته، فنلاحظ ان جوهر عقائد ملوك وأباطرة وأبطال الشاهنامه لا يختلف عن مبادئ العقائد الاسلامية، رغم ان هذه الشخصيات كانت تعيش في عصور ما قبل الاسلام. فنشاهد فيها عقائد شبيهة أو قريبة من العقائد الاسلامية كالايمان بالله الواحد المنزه، والقضاء والقدر، ويوم البعث والنشور. فالفردوسي لم يكن جاهلاً عند نظم الشاهنامه بالأخبار الايرانية القديمة والعقائد التي كان عليها ملوك ايران، غير ان عقائد المجتمع الاسلامي أمّلت عليه ان يضيف على شخصيات ملحمته ما ينسجم مع الخلق والعقائد الاسلامية^(٢٤).

اما حول واقعية ام عدم واقعية شخصيات الشاهنامه، فقد سعى بعض المتأخرين ان يطابقوا بين الاحداث الواردة في الشاهنامه وبين الوقائع ذات الصلة بالعصر الأخميني (الهخامنشي)، ولذلك اعتبروا الملوك الذين تحدث عنهم الشاهنامه، نفس ملوك ذلك العصر. غير ان هناك من يقول أن شخصيات مثل جمشيد، وفريدون، وكاووس، شخصيات اسطورية آرية مشتركة بين ايران والهند. وأنها ترجع الى مرحلة ما قبل الهجرة الآرية الى ايران والهند^(٢٥).

وليست هناك وثيقة تاريخية تؤكد على وجود حقيقي لملوك الشاهنامه. ويبدو ان الفردوسي نفسه كان مدركاً لهذه الحقيقة، حيث نراه عند اشارته الى ابيات الدقيقي يقول: «فسانه كهن بود ومنتور بود»، أي انه يشير الى اسطورتها. ويقول بعض الباحثين: «ان هؤلاء السلاطين ليس لهم أي وجود خارجي. ولو كان لهم وجود خارجي، فان زمانهم، ووقائع حياتهم، وأعمالهم، تختلف كلاً أو بعضاً مع ما ورد في الكتب العربية والفارسية. وانني على يقين من ان هؤلاء لا تربط بينهم أية صلة قرابة، ولم يعيشوا في عصر

واسلوب بيان الفردوسي في الشاهنامه بسيط، وواضح، وموجز، وبعيد كل البعد عن التزويق اللفظي والحشو الزائد الممل. وقد وصل ايجازه فيها الى حد الاعجاز. وظهرت القصص في أدق صورة، وأروع عبارة مع احتفاظها بسلامتها التاريخية. وهذا ما يعبر - في الحقيقة - عن الأمانة والنزاهة اللتين كان عليهما الفردوسي، ناهيك عن عبقريته في الحفاظ على روح النص من جهة، وروعة الشعر وجمال الايقاع من جهة اخرى. ولعل الذي صدّ عن الشاهنامه الانقراض والضياع - الذي كان مصير الشاهنامات الاخرى - هو قوة بيانها وجزالة عبارتها^(٢٦).

وهي في حقيقة الأمر ليست كتاب قصة وتاريخ وأدب فحسب، بل موسوعة كبرى في الفلسفة، والاخلاق، والحكمة، والعقائد وغيرها أيضاً. كما انها لم تنحصر ضمن تصوير جانب أو شكل واحد من اشكال الحياة الايرانية القديمة، وانما صورت لنا وبأجمل صورة وأروع كلمة، الرسوم والآداب والعادات والتقاليد القديمة أيضاً كالزواج، والسفارة، والصيد، وحيل الحرب، ومعاملة الاسرى، واسلوب كتابة الرسائل، وطريقة استخدام المعدات الحربية وآلات القتال، والعلاقات التي كانت قائمة بين الامم والدول وغيرها من الشؤون التي لا مجال لذكرها^(٢٧).

ومما امتاز به الفردوسي في الشاهنامه، عفة اللسان، وبعد الرأي، ورقة القلب، ولطافة الحس، وسلامة الذوق، وحكمة الطبع. وقد حاول ان يفهمنا من خلال شاهنامته ان من يزرع العمل السيئ لا يجني إلا سوءاً، والطريق الأعوج لا يوصل الى الهدف^(٢٨). ولذلك يُعد الايمان بالاصول الاخلاقية، احدى أعظم خصال الفردوسي التي تجلت في شاهنامته. فهو لم يأت فيها بأي لفظ ركيك ولا كلام مستهجن. وقدّم نصائحه القيمة بعبارة بليغة مؤثرة، بحيث لا يسع المرء سوى التأثر بها^(٢٩). ولذلك فقد تحول الكثير من أبيات الشاهنامه الى أمثال

اثرى الفردوسي والطبري، قائلًا: «ان فهم الفردوسي للتاريخ ذو طابع ملحمي في قالب ملحمة امة ما: هذه الامة في قلب العالم، والامم الاخرى تحيط بها وتطوقها وتنتظر اليها بعين ملؤها الاحترام. والتاريخ من وجهة نظره لا يبدأ إلا بكيومرث أول امبراطور ايراني وعالمي. وعظمة تاريخ العالم تتمثل في عظمة تاريخ ايران، وافول عظمة ايران تعني افول عظمة العالم ... فالفردوسي يفهم التاريخ على انه ملحمة الشعب الايراني ولا يمكن للملحمة ان تكون مستمرة كالتاريخ ... ويمكن ان نقيس هذا الفهم الذي كان عليه الفردوسي بالفهم الذي كان عليه المفكر الألماني الشهير شبنغلر الذي يرى ان تاريخ العالم لا يمكن أن يُقال عنه انه بدأ من نقطة معينة وانتهى الى عصرنا الراهن، بل ان التاريخ هو المدنيات والحضارات المنفصلة والمستقلة عن بعضها. ولكل حضارة شخصية حية تتمتع بخصائص مستقلة، أي انها كالكائن الحي الذي لديه مراحل حياتية خاصة به تبدأ بالولادة والطفولة والصبا، وتمر بالبلوغ والشيخوخة، وتنتهي بالموت. واذا كان هناك شبه بين الحضارات المختلفة، فهو في الصورة لا غير، مثل اي شبه بين كائن حي وآخر ... ومن له اطلاع على آراء شبنغلر ويقرأ الشاهنامه يدرك ان الحضارة التي نشأت في ايران على يد كيومرث وهوشنغ وطهمورت وجمشيد، تعد المرحلة الطفولية للحضارة، ثم وصلت بعد انقضاء فترة متأزمة الى مرحلة الصبا على يد فريدون وايرج ومنوچهر، ثم بلغت فترة الشباب في عهد كاوس وكيخسرو ورستم. وبلغت المرحلة العقلانية وفترة الكهولة بظهور زرادشت وغشتاسب، وشهدت هذه المرحلة ذروتها في عصر الساسانيين سيما في عهد انوشيروان. ثم بدأت بعد خسرو برويز فترة الضعف والانحطاط بشكل سريع، وماتت تلك الحضارة في معركة القادسية ...» (٣٠).

وخلص ما يريد ان يقوله الدكتور زرياب ان

وينظر البعض الى الشاهنامه كتراجيديا والى الفردوسي ليس كأعظم اساتذة التراجيديا في الأدب الايراني فحسب، وانما هو في مستوى سوفوكلس، ويوري بيبس، وشكسبير^(٢٧). والتراجيديا كما وصفها ارسطو في كتاب البوطيقا بأنها عبارة عن تقليد ومحاكاة لعمل ضخم متكامل الأحداث، يستثير شفقة المتفرجين، وينفث عن انفعال الخوف لديهم وتترتب أحداثه بشكل معين هو الحبكة، وهي اهم عناصره. ويأتي رسم الشخصيات بعدها في الأهمية. وقال شوبنهاور بأن التراجيديا أو المأساة هي الفن الذي يعكس الجوانب المفجعة في الحياة التي تتمثل في الآلام الانسانية التي تجل عن الحصر، وفي السقوط الذي يتردى اليه في النهاية كل العادلين والابرياء. وازاء ذلك لم يعد امام الانسان من سبيل لتغيير هذا المصير المحتوم إلا بتصويره وتمثيله. فبالفن العظيم يكون الخلاص من هذه الحياة المحكوم علينا بها^(٢٨).

وقد تصدق التراجيديا على بعض فصول الشاهنامه لاسيما الموقف الذي اصطدم فيه البطلان الأب والابن، رستم وسهراب - ومقتل الابن على يد الاب دون ان يعرف احدهما الآخر. وكذلك الموقف الذي التقى فيه العملاقان رستم واسفنديار ومقتل الأخير على يد الاول، اذ تُعد مثل هذه الاصطدامات من اعظم الصراعات النفسية في المنظومة، والتي يمكن ان تقدم لنا تراجيديا واقعية تطفح بالعناصر المأساوية البليغة. ويعتقد الفيلسوف الألماني هيغل ان اعظم التراجيديات هي تلك التراجيديا التي يكون موضوعها صراعاً بين فئتين أو جانبين يرى كل منهما نفسه على حق فيه، ثم تلحق المأساة بالجانبين كليهما^(٢٩). وقد ينطبق هذا الوصف على بعض صراعات الشاهنامه.

أما عن طبيعة رؤية الفردوسي للتاريخ في ملحتمه، فيتحدث عنها الدكتور عباس زرياب حينما قارن بين

الشاهنامه في ١٢ مجلداً الى السلطان الغزنوي في غزنيين ولم يذهب بنفسه اليه. وهذا الأمر بعيد الاحتمال لعدم وجود مصدر يؤيد ذلك من جهة، ومن جهة اخرى كيف يمكن للفردوسي ان يبعث كتاباً بهذه الأهمية الى سلطان متغطرس مغرور أوصله شعراء البلاط الى مقام الربوبية، دون ان يذهب معه، ولو على سبيل نيل الصلة والجائزة؟^(٣٣)

وورد في «تاريخ سيستان» لمؤلف مجهول ان الفردوسي اخذ يقرأ الشاهنامه على السلطان محمود لعدة ايام. وعندما فرغ منها، قال له السلطان: ليس فيها شيء عدا حديث رستم. وفي جيشي الف رجل كرستم! فأجابه الفردوسي: أطال الله عمر السلطان، أنا لا أدري كم في جيشك مثل رستم، لكن الذي أدريه ان الله لم يخلق عبداً كرستم! فالتفت السلطان لوزيره قائلاً: لقد نال مني هذا الصعلوك!^(٣٤)

وقيل ايضاً ان السلطان قدّم له جائزة متواضعة لا تتناسب مع عظمة الشاهنامه، الامر الذي أغضب الفردوسي وبعث في نفسه الاستياء، ولذلك قسّم تلك الجائزة بين حمامي وفقاعي. وحينما سمع السلطان بذلك غضب غضباً شديداً وأمر بقتل الفردوسي. فلجأ الفردوسي الى هرات واختبأ فيها لمدة ستة أشهر، ثم سافر من هناك الى طوس ومنها الى طبرستان فأضاف الى الشاهنامه مائة بيت في هجاء السلطان محمود. وذكر النظامي العروضي ان تلك الابيات قد فُقدت فيما بعد ولم يبق منها سوى ستة^(٣٥).

ويعتقد المستشرق الشهير «نولد» ان ذلك الهجاء لم يُنشر في حياة الفردوسي ولم يبلغ مسامع السلطان محمود، وإلا لما سلم الفردوسي من سطوته^(٣٦).

وذكر المؤرخون العديد من الاسباب التي دعت السلطان محمود الى عدم الاحتفاء بالشاهنامه ومنها شيعية الفردوسي أو معتزليته، ومدحه للابطال الايرانيين، وسعي الحاشية والخصوم لدى السلطان.

الشاهنامه ليست تاريخاً وانما هي تعبير عن المصير والتقدير، أي اننا نشاهد فيها الأحداث والوقائع مصيراً محتوماً ومقدراً. وهو ما يمكن ان يلتقي مع التعريف الذي قدمه شوبنهاور للتراجيديا.

ومهما قيل من تحليل ومهما طُرح من رأي، فقد استطاع الفردوسي من خلال ما يقرب من ٦٠ ألف بيت شعري على وزن عروضي واحد - البحر المتقارب - ان يقدم أروع الاساطير العالمية بالاستعانة بفكره الخلاق الرائع ويعرضها في اطار مدهش وابقاع أخاذ، بحيث اصبح هذا العمل الادبي الكبير مُلهماً لعدد كبير من الشعراء والمفكرين عبر مختلف العصور، حتى ان المستشرق الانجليزي كويل (cowell) قال فيها: «لقد استلم اوغسطس روما من الأجر وسلمها من المرمز. كذلك الفردوسي وجد بلده بدون أدب تقريباً، فسلم اليه الشاهنامه التي لم يستطع الابداء من بعده سوى تقليدها، دون ان يتفوق أحد عليها. انها ملحمة بامكانها ان تنافس كل أثر، ولا نظير لها في آسيا كلها مثلما هو حال ملاحم هوميروس في اوريا»^(٣٧).

موقف السلطان محمود من الشاهنامه

عندما أسقط السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي الدولة السامانية في ٣٨٩ هـ كان الفردوسي قد امضى حوالي عشرين عاماً في نظم الشاهنامه، والتي اكملها خلال ثلاثين عاماً كما أشار هو الى ذلك في الشاهنامه نفسها. وعندما فرغ الفردوسي منها في عام ٤٠١ هـ أو ٤٠٢ هـ حملها الى البلاط الغزنوي بعد أن اقترح عليه ذلك الوزير الايراني ابو العباس الفضل بن احمد الاسفرايني. ولكن الحظ لم يقف الى جانب الفردوسي إذ سرعان ما غضب السلطان محمود على هذا الوزير وأودعه السجن ثم قتله وعين بدلاً منه الحسن الميمندي الذي قيل انه لم يكن يتعاطف مع اللغة الفارسية^(٣٨).

وقال البعض ان الفردوسي قد بعث نسخة من

الشاهنامه إحدى روائع الأدب العالمي

وسهراب، ورستم واسفنديار، وسياءش. وفيها قصص أخرى فرعية مثل: فريدون والضحاك، وزال وروداب، وبيجن ومنيجه.

وطبقاً للشاهنامه، فقد خلق الله تعالى - أول ما خلق - رجلاً وامرأة هما «مشية» و«مشيانية». ثم وُلد بعد عدة أجيال أول امبراطور في العالم. وتلاه عدد من الأباطرة والملوك، حيث أخذ العالم في عهودهم يسير باتجاه التحضّر، وراحت تظهر الاختراعات والاكتشافات، كالكشف عن النار، واختراع اللغات والخطوط، وصهر الحديد، وصناعة الأسلحة، ونسج القماش، والخياطة، والبناء، والطبخ، والزراعة، وتدجين الحيوانات، وبناء السفن، والبراعة في الطب.

وتحدث الشاهنامه عن شخص يدعى «جمشيد» كان يدعو الناس إلى الله، فقبض عليه سلطان جائر يدعى الضحاك فقتله. وقبّل إبليس كفتي هذا السلطان فظهر عليهما ثعبانان، ولم يتمكن أحد من اقتلاعهما عن كتفيه. وتقرر أن يُقدّم لهما في كل يوم دماغاً إنسانين لنهدهنهما. ولذلك راح السلطان يقتل في كل يوم اثنين من الناس ليقدّمهما طعاماً للثعبانين. وكان من بين القتل رجل يدعى «اثين» (في الكتب العربية آثيان)، وهو من سلالة الملوك، فهربت زوجته وابنه «فريدون» خوفاً من سطوة الضحاك واحتميا بجبل البرز. وكان هناك رجل حداد يدعى «كاوه» له ١٨ ولداً، قتل الضحاك ١٧ منهم وقدم ادمغتهم للثعبانين. وعندما قبض الضحاك على الابن الأخير، فقد كاوه صبره، وذهب إلى البلاط طالباً إطلاق سراحه، فأطلق سراحه. غير أن كاوه لم يكتف باطلاق سراح ولده الأخير، وإنما أخذ يدعو الناس إلى الثورة على السلطان الجائر. وانضم إليه خلق كثير، واتجهوا جميعاً نحو جبل البرز، وأمروا فريدوناً عليهم. وتمكن فريدون من الاطاحة بالضحاك وتقلد زمام الأمور.

وقسم فريدون سلطانه في اواخر عهده بين اولاده

بينما يعتقد الدكتور الرياحي ان السبب الرئيس هو ان السلطان محمود لم يكن يفقه اللغة الشعرية^(٣٧). غير ان المعروف عن السلطان محمود انه كان يغدق الاموال ويخلع الخلع على الشعراء، حتى قيل انه قد اجتمع في بلاطه مائة شاعر. وانه كان ينفق سنوياً مبلغ ٤٠٠ ألف دينار على الشعراء والعلماء. وأورد العنصري انه كان يهدي عن كل قصيدة ألف مثقال من الذهب. ويقول الغرضي انه لكثرة ما اعطاهم من دنائير، أصبح الدينار لا قيمة له عندهم^(٣٨)! وهنا لا بد وأن يُثار السؤال التالي: اذن لماذا وقف السلطان محمود هذا الموقف المشين ازاء شعر الفردوسي، وهو أعظم بكثير من شعر الآخرين؟

ويجب الدكتور الرياحي على هذا السؤال قائلاً: الحقيقة ان كل هذا لا يدل على ان محموداً كان محباً للشعر ويفقه لغة الشعر. فهو كان بحاجة الى تلك القصائد لأنها تمدحه. فالأموال التي كان يغدقها على الشعراء، هي في الحقيقة اموال للدعاية والاعلام. غير أن الفردوسي كان شخصية أخرى، لم تكن من نوع الغرضي ولا العنصري^(٣٩). وهكذا لا يعتقد الرياحي وآخرون ان شيعة الفردوسي وسنيّة السلطان محمود هي العامل الكامن وراء ما لقيه الفردوسي وشعره من جفاء، وذلك لأن السلطان قد زوج إحدى بناته للأمير الشيعي منوچهر بن قابوس. كما انه كان يبعث الصلوات والجوائز الى الشاعر الشيعي «الغضائري» من غزنة إلى الري.

الشاهنامه بايجاز

من الصعوبة جداً تقديم خلاصة بحجم خلاصتنا هذه لملمحة كبرى مؤلفة من حوالي ٦٠ ألف بيت شعري، غير اننا وجدنا من الضروري تقديم هذه الخلاصة للقارئ الكريم لكي تكون لديه صورة ولو مجملّة عن الشاهنامه. وتضم الشاهنامه في الحقيقة أربع أساطير مسهبة وأساسية وهي: ايرج، ورستم

قتل ابنه! وغضب رستم على الامبراطور كيكاووس الذي لم يخبره بأن سهراباً ولده رغم علمه بذلك، ولذلك خرج من ايران حانقاً متألماً متوجهاً الى سيستان.

وكان لكيكاووس ولد جميل اسمه «سياوش»، وقعت زوجة ابيه «سودابه» في غرامه، فطلبت منه الوصال فأبى ذلك، فاتهمته لدى الامبراطور فأقسم لدى ابيه انه بريء من ذلك فصدقه ابوه. وسئم سياوش تلك الاوضاع فخرج من ايران قاصداً «طوران»، فتزوج بـ «فرنجيس» بنت الملك افراسياب، ملك طوران. غير ان هذا الملك قام بقتل سياوش في آخر المطاف. وخلف سياوش ابنين هما «أفرود» الذي قُتل هو الآخر، و«كيخسرو» الذي عاد الى ايران وأصبح امبراطوراً عليها. ونشبت في عهده معارك ضارية مع اقليم «طوران» قُتل خلالها ملكها افراسياب.

واعتزل كيكسرو الملك بعد فترة، وأصبح «لهراسب» ومن ثم «غشتاسب» ملكين على ايران. وفي هذه البرهة الزمنية ظهر «زرادشت» وآمن به «غشتاسب»، و«اسفنديار» البهلوان. وزحف اسفنديار نحو سيستان لقتال رستم، إلا انه قُتل على يد رستم.

وبهزيمة داريوش (داريوس) الثالث أمام الاسكندر المقدوني في معركة ايسوس، ينتهي عهد الدولة الكيانية. ثم يبدأ بعد ذلك في ايران عهد جديد هو عهد الدولة الاشكانية، غير ان الشاهنامه اكتفت بعدد من الأبيات وعدد من اسماء الملوك الاشكانيين. وتنفرد الشاهنامه بعد ذلك - أي بدءاً بأردشير بابكان وحتى نهايتها - بالحديث عن الدولة الساسانية. ورغم ان هذا الجزء من الشاهنامه يضم حشداً من الأساطير وقصص الغرام والبطولة، إلا انه يحفل ايضاً بالوعظ والنصيحة والحكمة.

الأمثال العربية

لقد صاغ الفردوسي في الشاهنامه الكثير من الامثال

الثلاثة، فأصبحت ايران - وهي القسم الاعظم - من نصيب ابنه الأصغر «ايرج»، الأمر الذي أثار حفيظة اخويه «سلم» و«طورا»، فقاما بقتل اخيهما.

وكانت احدى نساء ايرج حبلى، فأنجبت بنتاً، كبرت وتزوجت، فأنجبت هي الاخرى مولوداً يدعى «منوجهر» فرباه جدّاه - أي فريدون - لكي يثأر لولده «ايرج» من ولديه «سلم» و«طورا». وفعلاً أفلح منوجهر في قتلها. ونشبت اثر ذلك حروب ومعارك دامية بين ايران وطوران.

وولد لـ«غرشاسب» أو «سام» الذي كان بطل العالم في عهد «منوجهر»، ولد اسمه «دستان»، وسُمي باسم «زال» ايضاً لأنه ولد ابيض الشعر. وتزوج دستان بفتاة من ذرية الضحاك تُدعى «رودابه»، فأنجبت ولداً اسمه «رستم».

وعاش رستم في زمن امبراطور ايران المسمى «كيكاووس»، وقد وقع هذا الامبراطور أسيراً في مازندران، فهبّ اليه رستم وأنقذه من الأسر في ملحمة قتاليه رائعة. كما وقع في الأسر ثانية في هاماوران، فانطلق اليه رستم وخلصه من الاسر، وتزوج كيكاووس بـ «سودابه» ابنة سلطان هاماوران وجاء بها الى ايران.

وخلال هذه البرهة التاريخية جرت وقائع قصة سهراب: فقد تزوج «رستم» بفتاة تدعى «تهمينة» بنت ملك «سمنجان»، ولم يمض معها سوى ليلة واحدة حتى عاد الى ايران. وأنجبت تهمينة ابناً أطلقت عليه اسم «سهراب» الذي تحول بمرور الزمن الى بطل شديد المراس، وقلّده ملك «طوران» - واسمه افراسياب - منصب قيادة الجيش وبعثه الى ايران لحرب رستم. وتقابل الاب «رستم» والابن «سهراب» في مبارزة عجيبة دون ان يعرف أي منهما الآخر، رغم ان الابن كان يعلم ان له اباً باسم رستم. وقتل الوالد ابنه في نهاية المطاف فكانت صدمة عنيفة للأب حينما علم انه قد

- چه گفت آن سخنگوی با فر وهوش
چو خسرو شدی بندگی را بکوش

الهوامش

- ۱- علي دهباشي، الفردوسي والشاهنامه، مقال «مختلف العقائد في الشاهنامه»، د. عبدالمجيد البدوي، ص ۴۹.
- ۲- الكتاب السابق، مقال «الشاهنامات وشاهنامه الفردوسي»، د. محمد روشن، ص ۲۲۷.
- ۳- الكتاب السابق، مقال «رؤية الفردوسي للعالم»، غلام علي رعدي، ص ۱۷۲.
- ۴- المصدر السابق، ص ۱۷۶.
- ۵- المصدر السابق.
- ۶- حافظ محمود خان، في معرفة الفردوسي، ترجمة د. شاهد جوهدي، ص ۲۰۰.
- ۷- المصدر السابق، ص ۲۰۳.
- ۸- الكتاب السابق، مقال «دين الفردوسي ومذهبه»، محمد محيط الطباطبائي، ص ۵۲۱.
- ۹- الشاهنامه: كلمة فارسية مركبة من مقطعين، الاول «شاه» ويعني الملك، والثاني «نامه» ويعني رسالة. وهي تعني بالمصطلح العربي رسالة الملوك أو سيرة الملوك.
- ۱۰- عبد الله بن المقفع، قتلته والي البصرة عام ۱۴۲ هـ بأمر المنصور العباسي لأسباب سياسية.
- ۱۱- علي دهباشي، الفردوسي والشاهنامه، مقال «الفردوسي ومكاته»، مجتبي منوي، ص ۵۳۲.
- ۱۲- الكتاب السابق، مقال «حديث حول الشاهنامه»، د. ذبيح الله صفا، ص ۳۰۰.
- ۱۳- الكتاب السابق، مقال «الفردوسي وشعره»، محمد علي جمال زاده، ص ۱۰۸.
- ۱۴- الفردوسي ومكاته، ص ۵۳۲.
- ۱۵- عُرف تاريخ الطبري المترجم الى الفارسية بتاريخ البلعمي نظراً لترجمته تحت اشراف الوزير الساماني ابي علي البلعمي.
- ۱۶- ابو منصور الثعالبي النيسابوري (۹۶۱ م - ۱۰۲۸ م)، اديب ولغوي ومؤرخ عباسي، لديه الكثير من المصنفات أهمها: يتيمة الدهر في شعراء اهل العصر، وفقه اللغة، وكتاب الأمثال.
- ۱۷- الفردوسي ومكاته، ص ۵۳۴.
- ۱۸- الكتاب السابق، مقال «القيمة الادبية للشاهنامه»، د. اسماعيل حاكمي، ص ۱۱۶.

والحكم العربية - بل وبعض الآيات والأحاديث - أمثالاً فارسية، وبلغت فارسية موجزة وفصيحة ومعبرة عن روح المثل العربي أروع تعبير. ومنها على سبيل المثال:

* الآية: «واخفض لها جناح الذل من الرحمة».

- تهمتن بيامد بگسترده پر

به خواهش بر شاه بيروزگر

* الحديث النبوي «خير الامور أوسطها».

- به كار زمانه ميانه گزين

چو خواهی كه يابی همه آفرين

* الحديث النبوي «الدنيا مزرعة الآخرة».

- یکی مزرعه آن جهان است اين

نظر بر گشای و حقيقت ببين

* اذا جاء القدر عُمي البصر.

- قضا چون ز گردون فروهشت پر

همه زيركان كور گردند وكر

* طلب البعير قرنين فأضاع الأذنين.

- كه خر شد كه خواهد ز گاوان سر

به يكبار گم كرد گوش از دو سر

* من حفر بئراً لأخيه وقع فيه.

- کسی كو به ره بر كند ژرف چاه

سزد گر كند خويشتن را نگاه

* العجلة من الشيطان.

- شتاب وبدی كار اهريمن است

پشيمانی ورنج جان وتن است

* الحق مرّ.

- نگر تا چه گوید سخنگوی بلخ

كه باشد سخن گفتن راست تلخ

* جوع كلبك يتبعك سمّن كلبك يأكلك.

- سگ آن به كه خواهنده نان بود

چو سيرش كنی دشمن جان بود

* سيّد القوم خادمهم.

الشاهنامه إحدی روائع الأدب العالمي

- ١٩- الكتاب السابق، مقال «حديث حول الشاهنامه» د. ذبيح الله صفا، ص ٣٠٤.
- ٢٠- الكتاب السابق، مقال «شاهنامه الفردوسي»، د. حلال الدين هماني، ص ٥٩١.
- ٢١- الكتاب السابق، مقال «كلمات حول الفردوسي والشاهنامه»، ضياء الدين سجادي، ص ٢٨٠.
- ٢٢- موسوعة دهخدا، ذيل الفردوسي.
- ٢٣- علي دهباشي، الفردوسي والشاهنامه، مقال «القيمة الأدبية للشاهنامه» د. اسماعيل حاكمي، ص ١١٨.
- ٢٤- الكتاب السابق «مختلف العقائد في الشاهنامه»، د. عبد المجيد بدوي، ص ٥٧.
- ٢٥- مجتبي ميتوي، فردوسي والشعراء، ص ١٢.
- ٢٦- علي دهباشي، الفردوسي والشاهنامه، مقال «الفردوسي وشعره»، محمد علي جمال زاده، ص ٩٤.
- ٢٧- الكتاب السابق، مقال «الفردوسي استاذ التراجيديا»، د. محمود صناعي، ص ٣٠٩.
- ٢٨- د. عبد المنعم الحفي، المعجم الشامل للمصطلحات الفلسفية، ص ٧١٩.
- ٢٩- مقال «الفردوسي استاذ التراجيديا»، ص ٣٢٨.
- ٣٠- علي دهباشي، الفردوسي والشاهنامه، مقال «الفردوسي والظفري»، د. عباس زرياب الخوئي، ص ٢٤٩ - ٢٥١.
- ٣١- الكتاب السابق، مقال «كلمات حول الفردوسي والشاهنامه»، ص ٢٧٦.
- ٣٢- الكتاب السابق، مقال «الشاهنامات وشاهنامه الفردوسي»، د. محمد روشن، ص ٢٣٢.
- ٣٣- الكتاب السابق، مقال «الفردوسي وشعره»، محمد علي جمال زاده، ص ٩٩.
- ٣٤- الكتاب السابق، مقال «الشاهنامات وشاهنامه الفردوسي»، ص ٢٣٣.
- ٣٥- الكتاب السابق، مقال «رؤية الفردوسي للعالم»، غلام علي رعدي، ص ٢٣٠٧.
- ٣٦- المصدر السابق.
- ٣٧- الكتاب السابق، مقال «اسطورة الفردوسي ومحمود»، د. محمد أمين الرياحي، ص ٢٣٠٧.
- ٣٨- نفس المصدر.
- ٣٩- نفس المصدر، ص ٢٣٨.

* * *